نتائج انصهار العرب الفاتحين والنصارى الإسبان في بودقة واحدة بالأندلس

1 – ظهور فئة المولدين: من بين المشكلات التي تواجه الخوض في هذا الموضوع هو ندرة المعلومات التاريخية التي تؤصل له، حيث أعرض أغلب من أرخ للأندلس عن ذكر آثار الزواج المختلط ، ورغم ذلك فإن من أكبر النتائج ظهور فئة المولدين، والذي كان حصيلة الزواج بين العرب والبربر من جهة ونساء النصارى من جهة أخرى، إلا أنهم كانوا على الديانة الاسلامية، وبذلك يكون هناك فرق كبير بينهم وبين "الأسالمة" أو "المسالمة"، حيث هذه ا لأخيرة عناصر إسبانية أسلمت مع الفتح الاسلامي أو بعده، كما يختلفون عن المستعربين الذين حافظوا على ديانتهم النصرانية مع تعريب لسانهم، وهذا الأمر من المواضيع التي سببت اشكال عند كبار الباحثين في التاريخ الأندلسي فحدث لهم الخلط بينهم، وربما يعود هذا الخلط إلى أن كل هده الفئات الاجتماعية لم تكن تعيش حياة منفصلة عن بعضها، وإنما كانت مندمجة، فمبرور الوقت يصعب التفريق بين كل هذه الفئات لما يحدث من تزاوج وانتقال بينها.

وبمرور الوقت أصبح المولدون يشكلون الجمهرة الغالبة من سكان الأندلس، رغم اختفاء هذا المصطلح في نهاية القرن الثالث الهجري، مما يبين الاختلاط الكبير للسكان وبروز تسمية الأندلسيين بشكل واضح كعصبية جديدة للمكان أكثر منها للأجناس، ولم يعد نسب الأم منقصة أو مدعاة للخجل داخل المجتمع، ويكفي أن نتصفح كتب التراجم التي جاءت تباعا حتى تصادفنا الكثير من أسماء الأعلام من ذوي الأصل الاسباني مثل ابن لب وابن فرتون وابن مارتين وابن القوطية وشنجول وابن غرسية وابن شبطون والأقشتين، وفي المقابل احتفظ الكثير من المولدين بأسمائهم الإسبانية أمثال بنو أنجلين وبنو شبرقة وبنو الجريج وبنو القبطرية وبنو مردنيش وبنو غرسية وبنو زدلف.

ومما يبين بشكل عميق مستوى التغير الذي حدث في المجتمع الأندلسي في العصور المتأخرة تصفحنا للوثائق العربية الغرناطية ، حيث نلاحظ أن المجتمع الغرناطي لم يعد يبحث كثيرا عن إرجاع نسبه إلى

الأسر العربية العريقة مثلما كان في عهود سبقت، وإنما أصبح مجتمعا أندلسيا أصيلا، ونلاحظ ذلك من خلال أسماء وألقاب أكثرهم، فلا نجد فيها الصفة المشرقية حاضرة بكثرة، فهم ينسبون أنفسهم بفخر إلى الأسر الأندلسية المسلمة العريقة، فأصبحت الألقاب تنسب إلى المدن والنواحي بدل الأصول العربية، مثل الطرطوشي والحامي والمالقي والغرناطي وغيرها من أسماء الحواضر المشهورة، فالأندلسيون أصبحوا أشبه بعرقية جديدة ناشئة تكاملت في فترات وتصادمت في فترات أخرى، لهذا نجد الدكتور حسين مؤنس يصفهم بأنهم كانوا من أوفر العناصر البشرية نشاطا وأكثرها تلاؤما مع ظروف الحياة في شبه الجزيرة الأيبيرية وهو ما يحدث عادة عند تنوع الأعراق وفي هذا الموضوع تلفت انتباهنا نقطة غاية في الأهمية، وهي تعتمد على ما ذكرناه سابقا من أن كل أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس كانوا لأمهات غير عربيات، بل اسبانيات، ومع هذا لا نسمع أحدا من مؤرخي الأندلس يصفهم بالمولدين، رغم أنهم أبناء تلك السبيات ، مع العلم أن التقيد بالموضوعية يلزمهم ذلك، وهنا ربما يعود سبب عدم وصفهم في المصادر التاريخية بالمولدين إلى الخوف ، فلم يوصف هشام المؤيد بالله بأنه مولد، مع العلم بأنه تجري في عروقه

الدماء القوطية، ومن ناحية أخرى إذا أدخلنا أسلوب الحساب في العملية فإنه وفق ما يذهب إليه كثير من المؤرخين المستشرقين سنجد أن العرب الذي دخلوا الأندلس في البداية قد ذابوا في الجنس الأسباني، حتى وكأنه لم يعد للواحد منهم في عروقه سوى قطرات قليلة من الدم العربي تجري مع دمه الأسباني، وفي هذا الصدد قام المستشرق الإسباني "خوليان ريبيرا بعملية حسابية على الأسرة الأموية في الأندلس، وصل من خلالها إلى نتائج كان أهمها :

أن عبد الرحمن الداخل كان يحمل نصف دم عربي فقط، لأنه كان من أم غير عربية، وكذلك ابنه هشام الرضى لا يحمل إلا مقدار الربع من الدم العربي، وذلك لأن أمه كانت أيضا غير عربية، وبهذا الشكل تضعف نسبة الدم العربي تدرجا في الأسرة الأموية، وتتضاعف في المقابل نسبة الدم غير العربي، فمثلا الحكم الربضي يتوفر على الثمن من الدم العربي، أما عبد الرحمن الثاني فيكون نصيبه جزء من 16 جزء، أما الأمير محمد ليس له سوى جزء من 32 جزء ، أما المنذر بن محمد فله جزء من 64 جزء، وهكذا يصل ريبيرا إلى تناقص نسبة الدم العربي عند الأمراء والخلفاء الأمويين حتى يصل إلى هشام المؤيد بالله، فيجد أن نصيبه من الدم العربي إلا جزء من 1420 جزء، وهي عملية منطقية من الناحية الحسابية، رغم من تحمله من شيء من التظليل، حيث أننا لا نستطيع الجزم بهذا الشكل من ذوبان الدم العربي في الاسبان على اعتبار أنه ليس من المضمون أن كل تلك النساء الاسبانيات كن دائما وافدات جدد على الأندلس، أي أنهن من دم اسباني خالص، فالأكيد أن عددا منهن كن يحملن نصف الدم العربي أي مولدات من أب عربي، وكذلك سنجد أن عددا من العرب والبربر قدموا إلى الأندلس في شكل أسر، أو أن القدوم إلى الأندلس لم يكن حكرا على الرجال من غير النساء، كما أنه ليس من المعقول أن نتصور أن عملية الزواج المختلط كانت تنتج لنا فقد ذكورا دون الإناث، ليتزوجوا دائما من أسبانيات.

اي أنه حدث اختلاط كبير في الأجناس الأندلسية بين العرب والبربر والأسبان ، إلا أن النزعة العربية لم تضمحل، بل كانت الثقافة العربية واللغة والحضارة والموروث مشرقي في الأساس يحمل اللمسة الأندلسية.

ومن أهم آثار فئة المولدين على المجتمع الأندلسي هي :

١ـ سرعة انتشار الاسلام فيه، وهو يؤكد ان الاسلام لم ينتشر في اسبانيا النصرانية بحد السيف .

٢ـ نبوغ العديد من الأسر المولدة في المجالات العلمية والسياسية، فكانت لهم الإضافة الكبيرة في ملامح الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس .

٣ـ كانوا ناقلين لحضارة المسلمين إلى أوربا بأكملها .

٤ـ انتقال عدد من الصفات الجمالية من الأسبان إلى الأندلسيين.

أما النتائج السلبية التي أدت إليها ظاهرة الزواج المختلط في الأندلس هي :

تمثلت في الشعوبية المولدة ، أي العنصرية لهذه الفئة، خاصة مع بروز الممارسات العنصرية من قبل بعض أمراء بني أمية .كما أدت هذه الظاهرة في النهاية إلى هزات عنيفة في التاريخ الأندلسي كان من بينها ثورة ابن حفصون.

2 – اختلاط التقاليد الشرقية بالتقاليد المحلية :

نتيجة لقلة عدد العرب والبربر الذين استوطنوا الأندلس مقارنة بالسكان الأصليين"القوط"، فإننا ندرك بدقة حجم الذوبان الاجتماعي الذي حدث لهم في هذه البلاد، رغم أن الطابع الغالب هو الثقافة العربية الاسلامية ،هذا الأمر دفع بعدد من المستشرقين الاسبان إلى اعتبار أن الحضارة الأندلسية هي محلية أكثر منها تابعة للعرب أو البربر الوافدين على البلاد، إلى درجة اعتبار هذه الحضارة امتدادا للتراث السابق لفترة الفتح، وأن هذه الحضارة غربية وليست شرقية، وهذا بتقديمهم العديد من المبررات التي أخذوها من خلال الدراسات المعمقة والمقارنة للبنية الأندلسية، ومن الأمثلة التي قدموها في هذا الموضوع ما تعلق بالمرأة والشعر وتلك العقلية التي سادت حيث كانت تختلف تماما عن تلك التي سادت في بقية حواضر العالم الاسلامي بسبب تأثر الأندلسيين المولدين بالقيم الفكرية والأخلاقية للمجتمع، كما ان الدور الذي لعبته المرأة في المجتمع الأندلسي والذي يفوق بشكل كبير الأدوار التي لعبتها نظيرتها في بلاد المشرق الاسلامي، حيث تميزت المرأة الأندلسية بحرية كبيرة في التحرك والتنقل والعمل والعلم والثقافة، وكلها أدلة على أن دخول المسلمين إلى الأندلس لم يحدث ذلك التغيير الجذري في البناء الاجتماعي والفكري مقارنة مع ما أحدثه في باقي المناطق المفتوحة مشرقا ومغربا ، فإنه رغم تلك الحرية التي ذكرتها المصادر التاريخية، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأنها كانت تمس عموم المجتمع في المدن والأرياف، كما لا نستطيع الجزم بأن هذه الحرية قد مست بدرجات كبيرة المرأة الحرة، على اعتبار أن الجارية في البداية على الأقل لا تمثل عمق المجتمع، كما أن المرأة الأندلسية لم تتخلى عن التقاليد العامة للشريعة الاسلامية ،وإنما كانت ملتزمة بها مع بعض الحريات المكتسبة.

وفي الغالب تتعدد الأمثلة التي تثبت امتزاج العادات والتقاليد المشرقية والقوطية المحلية في المجتمع الأندلسي، فنجد مثلا ظاهرة الاحتفال بالأعياد في الأندلس، حيث تشتمل أعيادا إسلامية وأخرى غير إسلامية، فنجدهم يحتفلون بعيد الفطر والأضحى وعاشوراء والمولد النبوي الشريف، إضافة إلى احتفالهم بعيد النيروز ذو الأصل الفارسي، حيث يتفننون في صناعة الحلوى فيه ويتبادلونها، إضافة إلى ذلك احتفلوا بعيد المهرجان ، وعيد الميلاد خاصة الليلة التي تسبق العام الجديد والتي تسمى الليلة العجوز، كما كان يوم الأحد يوم عطلة في الأندلس للدوائر الرسمية التابعة للسلطة، وهذا الأمر يبين مدى التعايش الذي شهدته الأندلس بين كل العناصر، وأن المسلمين لم يتعصبوا لثقافتهم، بل تعايشوا وتأقلموا مع النصارى الموجودين في البلد، كما أدخل المغني زرياب العديد من العادات والألعاب المشرقية كالشطرنج مثلا ، والتي بدورها انتقلت إلى بلاد الغرب المسيحي، ومن العادات النصرانية الغربية كذلك في المجتمع الأندلسي هو اختلاط النساء بالرجال في شتى المناسبات.

3 – انتشار اللغة الرومانسية (اللطينية) :

أثر الزواج المختلط في الأندلس على لغة التخاطب اليومية تأثيرا كبيرا جدا، رغم أنه من المنطقي أن في البداية كانت اللغة العربية الفصحى هي اللغة المتداولة، وهي اللسان الحضاري في الأندلس على مدى تاريخها الاسلامي، وهي لغة الشعر والنثر والوثائق الرسمية ، ولغة التعليم، فكان التمكن منها وإتقانها الشرط الأساسي في تولي مناصب الدولة، وهو الأمر الذي دفع بالمستعربين واليهود إلى تعلمها وإتقانها للترقي في المراتب الادارية، حيث بهذا تقربهم من أمراء وخلفاء الأندلس.

ورغم ذلك فقد تأثرت لغة التخاطب اليومية في الأندلس خاصة مع بروز فئة المولدين، والذين كان تأثرهم بلغة أمهاتهم الإسبانيات كبيرا جدا، فنتج عن ذلك ازدواجية في اللغة ميزت الثقافة الأندلسية، والتي تسميها المصادر التاريخية بـ "أعجمية أهل الأندلس" أو "اللطينية"، وهي اللهجة التي كان يتكلم بها الناس في حياتهم اليومية، ومن الأدلة التي تؤكد استعمال الأندلسيين لهذه اللغة على نطاق واسع، هو استغراب الفقيه والمؤرخ ابن حزم الظاهري من أهل "دار بلى" في شمل قرطبة في كون رجالهم ونسائهم لا يحسنون الكلام باللطينية وإنما يستعملون العربية فقط، وفي نفس الطرح أيضا تفيدنا الكثير من المصادر التاريخية بأن الخلفاء والأمراء وبقية الناس في الأندلس كانوا يجيدون استخدام لهجة اسبانية بجانب اللغة العربية على نطاق واسع ،وخاصة في مواضع النزاع التي كانت ترفع إلى القضاة ،وذلك عندما يمثل لديهم رجل نصراني لا يعرف العربية، فإن القاضي لا يجد إشكالا في مخاطبته باللغة التي يفهمها حتى يكون العدل قائما في أحكامه التي يصدرها، وتصادفنا في الشعر الأندلسي العديد من الألفاظ الإسبانية وما يقابلها باللغة العربية إما بطريق مباشر أوعن طريق الكناية والاستعارة بصورة تدل على التمكن من اللغتين، كما أن فن التوشيح الذي كان من الفنون الأدبية الشعبية في الأندلس، والذي كان أكبر ثورة أدبية شهدتها الأندلس في تاريخها الأدبي أ واخر القرن الثالث الهجري، كانت في الغالب كنتيجة طبيعية لتطور الحياة الاجتماعية في الأندلس الناجمة عن الاختلاط والتمازج بين العناصر المحلية والعناصر الوافدة، وكنتيجة أيضا لازدواج اللغة بين العربية والأعجمية .

وتميزت الموشحات بتحررها من القيود والقواعد التي تميز الشعر العربي التقليدي من حيث الالتزام بالقافية الموحدة، أما الأوزان فقد تغيرت تغيرا كبيرا لتتأقلم مع الألحان، هذا بالإضافة الى التحرر من اللغة الفصحى إلى العامة أو حتى الأعجمية.